منشورات مركز الإمام الألباني: (٤)
جمادى الآخرة (١٤٢٢هـ)

نبذة علمية في منهج السلف في العلم والعلماء

إعداد
لجنة التحقيق العلمي، وتحقيق التراث الإسلامي
مركز الإمام الألباني
للدراسات المنهجية، والأبحاث العلمية
عمان - الأردن
تلفاكس: (٠٠٩٦٢-٦-٥٠٥٤٠٥٢)
www.albani-center.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن والاه.

فإنّ العلم عند السلف هو «الدين» -كما قال ابن سيرين[1]- وهو غذاء للإيمان والفطرة واليقين:

قال حذيفة: «إنا قوم أوتينا الإيمان قبل أن نؤتى القرآن»[1]، وقال النبي ﷺ - فيما ثبت عنه -: «إنّ الأمانةَ نزلت في جذر قلوبِ الرجال، ثم علموا من الكتاب ثم علموا من السنة»[3].

وطلب العلم فرض من أعظم فروض الدين، ومقدار أساس ذلك ما تصح به العقيدة، والعبادة اللازمة، وما يلزم الإنسان في يومه وليلته، وما يَصْلُح به ظاهره وباطنه، وهذا الطلب لازم للجهال، ولطالب العلم المبتدئ، والمتقدم، بل وللعالم كذلك، فالواجبُ على المسلم أن يكون طالبَ علمٍ، ويبقى على هذا الحال مع المحبرة إلى المقبرة، والعبرةُ بالطلب بغضِّ النظر عن الوسيلة؛ فالشيخُ -على كِبَرِ مكانتِه، وضرورته- لا يُراد لذاته، وإنما لثماره؛ وهي: تذليل الصعب،

(١) أخرجه مسلم في «مقدمة صحيحه» (١/ ١٤)، وابن سعد (٧/ ١٩٤)، وأبو نعيم (٢/ ٢٧٨)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (رقم٨٤٥، ٨٤٦، ١١٣٣)، وسنده صحيح.

وهو وارد عن ابن عون، عند الخطيب(١١٣٤)، وعن مالك عند الخطيب أيضاً (٨٥١)، وابن عبدالبر في «التمهيد» (١/ ٦٧).

وروي مرفوعاً ولم يثبت.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في «السنن» (رقم٤٨)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٩)، والبيهقي (٣/ ١٢٠)، وهو صحيح بمجموع طرقه.

وفي الباب عن جندب، قال: «كنا غلماناً حزاورة مع رسول الله ﷺ، فيعلمنا الإيمان قبل القرآن، فازددنا به إيماناً، وإنكم اليوم تعلمون القرآن قبل الإيمان».

أخرجه ابن ماجه (رقم ٦١)، وابن منده في «الإيمان» (رقم٢٠٨)، والبيهقي (٣/ ١٢٠)، وسنده جيد.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٤٩٧، ٧٠٨٦)، ومسلم في «صحيحه» (رقم١٤٣).

وتقريب البعيد، وتيسير العسير، ولتحقيق السمت والهدي، ولذا فالعبارة التي تقول: «من لا شيخ له فالشيطان شيخه» خاطئة غالطة.

وللعلم فضيلةٌ لا تخفى على أحدٍ، فالآياتُ والأحاديثُ والآثارُ السَّلفيَّةُ كثيرةٌ شهيرةٌ في ذلك، ويتأكد ذلك ويتأيد بأثر العلماء، وثمارهم في تمسيك الناس بالكتاب، والذب عن الدِّين، ووجود الرحمة في الحياتين: الدنيا والآخرة، ولا يعدل ذلك شيءٌ، ولذلك كان العلماء ورثة الأنبياء؛ كما ورد عن النبي ﷺ.

ومما ينبغي أن يُعلم أن الرد على المخالفين من أهل الأهواء والانحراف في أصولهم بابٌ من أبواب الجهاد، «فالجِلادُ بالسيف والسنان، والجِدَالُ بالحجة والبرهان، كالأخوين الشقيقين، والقرينين المتصاحبين، والفروسية فروسيتان: فروسية العلم والبيان، وفروسية الرمي والطعان.

وكان أصحاب النبي ﷺ أكمل الخلق في الفروسيتين، فتحوا القلوب بالحجة والبيان، والبلاد بالسيف والسنان.

وما الناس إلا هؤلاء الفريقان، ومَن عداهم، فإنْ لم يكن ردءاً وعوناً لهما، فهو كَلٌّ على نوع الإنسان.

وقد أمر اللهُ - سبحانه وتعالى - رسولَه بِجِدَالِ الكفار والمنافقين، وجِلادِ أعدائه المشاقّين والمحاربين، فعِلم الجدال والجلاد من أهم العلوم وأنفعها للعباد، في المعاش والمعاد، ولا يعدل مدادَ العلماء إلا دمُ الشهداء، والرفعة وعلوّ المنزلة في الدّارين لهاتين الطائفتين، وسائر الناس رعيّة لهما، منقادون لرؤسائهما»[4].

ولذا فسّر غير واحدٍ من الصّحابة والتابعين (أولي الأمر) في قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾؛ بأنهم أهل العلم، حكاه ابن جرير[5] عن جابر بن عبدالله، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وأبي العالية.

ولا شك أن للعلماء الربانيين ولايةً على غيرهم ممن هم دونهم؛ وذلك مما أودعه الله في قلوبهم من العلم، ولما ظهر على سِيمَاتِهم من الخشية والتزكية.

(٤) «الفروسية» (ص١٥٦-١٥٧) لابن القيم.

(٥) في «تفسيره» (٥/ ١٤٩)، وانظر - غير مأمور -: «المستدرك» (١/ ١٢٣)، «السنة» للالكائي (١/ ٧٣)، «الدر المنثور» (٢/ ١٧٦).

قال ابن القيم:

«والتحقيقُ أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتُهم تَبَعٌ لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تَبَعٌ لطاعة الرسول؛ فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء.

ولما كان قيام الإسلام بطائفتين: العلماءُ والأمراءُ، وكان الناس لهم تبعاً، كان صلاح العالَم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما»[6].

ولا بد من مراعاة مراتب العلماء، فإذا جاء العلم من قِبَل كبار علماء الأمة فهم بخير، قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «إنكم لن تزالوا بخير ما دام العلم في كباركم، فإن كان العلم في صغاركم سفّه الصغيرُ الكبيرَ»[7]، بل على هذا مدار الصلاح والفساد، فقد ثبت عن عُمر -رضي الله عنه- قوله:

«فسادُ الدين إذا جاء العلم من قِبَلِ الصغير؛ استعصى عليه الكبيرُ، وصلاحُ الناس إذا جاء العلم من قِبَلِ الكبير؛ تابعه عليه الصغيرُ»[8].

فهؤلاء العلماء الكبار يجب حبُّهم -ظاهراً وباطناً-، واستفتاؤهم في النوازل والمسائل العامة، ويجب النزولُ في القلاقل والمشاكل عند رأيهم، والانصياع إلى أمرهم.

فترتيب الأولويات، والانشغال بواجب الوقت، ومعرفة المصالح والمفاسد، وتقديرها، ولا سيّما في زمن الفتنة من شأنهم -حَسْبُ-.

ولما حاول أهل الحزبيات أن يسدُّوا الفراغ الناشئ عن غياب العلماء الربانيين، وقعت الأمة في شر مستطير، وفساد خطير، وذلك لأنهم راعَوْا مصالحهم الشخصية، وأهواءهم، ونصرة أسمائهم وشاراتهم دون أوامر الله -عزّ وجلّ-.

والناس في جميع طبقاتهم -علماؤهم وطلبة العلم المتقدمون، وطلبة العلم المبتدئون، والعامة- ينبغي أن تكون العلاقة فيما بينهم علاقة تكامل لا تآكل، ويتقومون بالولاية الإيمانية فيما بينهم، من خلال التواصي بالحق والصبر،

(٦) «إعلام الموقعين» (١/ ١٠ - ط: عبدالرؤوف سعد).

(٧) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (رقم٨١٥)، وعبدالرزاق (١١/ ٢٤٦)، وأبو نعيم (٨/ ٤٩)، واللالكائي في «السنة» (رقم١٠١)، وابن عبدالبر في «الجامع» (رقم١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠)، وسنده صحيح، وألفاظهُ متعدّدة.

(٨) أخرجه ابن عبدالبر في «الجامع» (رقم ١٠٥٥، ١٠٥٦)، وإسناده حسن.

والأئمار بالمعروف، والتناهي عن المنكر، وأن يعقدوا سلطان الحب والبغض، والولاء والبراء على الدين، دون الأسماء والعناوين.

وسعادة الأمة، وعودة عزّها المفقود لا يتحقّق في آخر هذه الأمة إلا كما تحقق في أولها، وذلك من خلال الالتفاف حول العلماء، دون العامة الدّهماء، من الرؤوس الضالّة، التي تتكلم في الدين بغير علم؛ فيَضِلّون ويُضِلّون . . .

ولذا؛ فإن العلماء الربانيين هم رأس الجماعة التي أُمرنا بلزومها، وحُذِّرنا من مفارقتها، وكانوا هم -ولا يزالون- الطائفة المنصورة التي لا تضرّها من خذلها حتى يأتي الله بأمره.

قال الإمام البخاري: «هذه الطائفة هم أهل العلم».

وقال الإمام أحمد: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم!».

قال القاضي عِيَاض -معلقاً على كلامه-: «إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث»[٩].

ولذا لما سُئل ابن المبارك: مَن الجماعة الذين ينبغي أن يُقتدى بهم؟

قال: أبو بكر وعمر . . . فلم يزل يحسب حتى انتهى إلى محمد بن ثابت والحسين بن واقد.

قيل: هؤلاء ماتوا، فمِنَ الأحياء؟

قال: أبو حمزة السكري[١٠].

والعلماء هم الربانيون، الذين يُعْرَفون برسوخ أقدامهم في مواطن الشُبه وعند الفتن، حيث تزيغ الأفهام، فلا يسلَمُ إلا من رحمه الله.

قال ابن القيّم:

«إن الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينه، ولا قدحت فيه شكاً؛ لأنه قد رسخ في العلم، فلا

---

(٩) انظر «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٣/ ٦٧)، و «شرف أصحاب الحديث» (٢٦)، و«شرح السنة» (١/ ٢١٦).

(١٠) انظر: «جامع الترمذي» (عقب رقم ٢١٦٧)، و«تاريخ أبي زرعة الدمشقي» (٢٠٨)، والاعتصام (٣/ ٣٠٢-٣٠٣).

تستفزّه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردّها حَرَسُ العلم وجيشُه، مغلولةً مغلوبةً.[11] انتهى

هؤلاء العلماء هم الذين يُعرفون بجهادهم ودعوتهم إلى الله -عز وجل-، وببذلهم الأوقات، والجهود في سبيل الله، ويُعرفون بنسكهم وخشيتهم لله، فحينئذٍ يكون هؤلاء هم مرجعَ الأمة، وساداتها، وبالاجتماع حولهم، وطاعتهم -ديانةً وتقرباً- تسعدُ الأمة بهم، وتصعدُ.

ومما ينبغي تسطيره والتيقّظ له: التفريق بين العلماء، وبين من قد يشتبه بهم من:

* الخطباء والوعاظ: فلا يلزم من كون الشخص خطيباً أو واعظاً أن يكون عالماً، وإن ازدحمت الوفُ العامة بين يديه، فهؤلاء قصّاصون متكلّمون، وينفعون بمقدار سلامة عقيدتهم ومنهجهم، وإلا فكما قال مجاهد: «ذهب العلماء، فلم يبق إلا المتكلمون»[12].

ومجرد وجود القدرة الخِطَابيّة لا يلزم منها وجودُ العقلية العلمية، والتأصيل الفقهي، فقد ذكر ابن الجوزي أنّ صَنْعَةَ الوعظ في زمانه «تعرّض لها الجهال، فأعرض عن الحضور المميِّزون من الناس، وتعلّق بهم العوام والنساء»[13]، هذا حالهم آنذاك، فماذا نقول اليوم؟! اللهم لطفك وحنانيك!

وقد ثبت عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قوله: «إنكم في زمان كثير علماؤه، قليل خطباؤه، وإن بعدكم زماناً، كثير خطباؤه والعلماء فيه قليل»[14].

وهذا له حكمُ الرفع -بل وَرَدَ مرفوعاً-، وواقعنا ينطقُ به.

* المفكّرين والمثقفين: ممن لهم اطّلاعٌ على مجمل القضايا التي لها تعلّقٌ بالتصور الكلي عن الشريعة؛ كالنظرة للكون والإنسان والحياة، ومعرفة الأديان والمذاهب المعاصرة، مع اطّلاع على القضايا التي تُعَدّ مفرق طرق بين الإسلام وسائر الأفكار الأرضية؛ مّما يسمّونه -اليوم-: (فقه الواقع)!! فهم يملكون (غيرة)، ولكنهم غير مؤهّلين للتصدّر في إعطاء (النوازل) و (المستجدات) أحكامها الشرعيّة، سواء كانت في قضايا (سياسية) أو (اقتصادية)، أو غيرها، ولا سيما إن كان هؤلاء متخصصين في العلوم التجريبية، أو الإنسانية، فإنّ تصوراتهم غير مضبوطة، وبالدَّخَن والخلل مخلوطة . . . إلا من رحم ربي منهم.

* العقلانيين والعصرانيّين والصحفيين والمذيعين وأهل السفسطة والكلام، ولا سيّما ذاك الصنف الذي يكثر هَذرُه، ويظهر شرّه في الصحف والمجلات، أو على الفضائيات -كالقرضاوي، والكُبيسي، وأشباههما-.

ورحم الله ابن عبدالبر؛ فإنه قال: «أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ، ولا يُعَدُّون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء، وإنما العلماء أهل الأثر والفقه، ويتفاضلون فيه بالاتقان والميز والفهم»[15].

ولله درُّ ابن رجب لما قال: «وقد فُتن كثير من المتأخرين بهذا، وظنّوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين، فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهلٌ محضٌ، وانظر إلى أكابر الصحابة وعلمائهم كأبي بكر، وعمر، وعلي، ومعاذ، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، كيف كانوا؟! كلامهم أقلّ من كلام ابن عباس، وهم أعلم منه، وكذلك كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة، والصحابة أعلم منهم، وكذلك تابعو التابعين؛ كلامهم أكثر من كلام التابعين، والتابعون أعلم منهم».

قال: «فليس العلم بكثرة الرواية، ولا بكثرة المقال؛ ولكنّه نورٌ يُقذف في القلب، يَفهم به العبدُ الحقَّ، ويميّز به بينه وبين الباطل، ويعبّر عن ذلك بعبارات وجيزة، محصّلة للمقاصد»[16].

ولذا كان من أبرز سمات مَن ينفع الله به: العلم -وهو: دين الله -كما قدّمنا-؛ فهو مقصدهم الأعلى؛ لذا فهم يعطونه كلَّهم، من اهتمام، ووقت، فهو شغلهم الشاغل، فيعملون على حِذْقِ أصوله ونصوصه، وقواعده، ويجاهدون أنفسهم بالامتثال إلى ما فيه من حقّ وعدل، حتى ينطبعَ في نفوسهم من خلال ذلك فقهُ الشّرع، وضبطُ أحكامه، وإحكامُه؛ وبذلك يلحقون ما لم يُنصّ عليه بالمنصوص؛ فالشرع قواعد عامة، والمسائل في جميع أحكام الدين (من الطهارة إلى السياسة) لها نظائر وأشباه، فمن حَذِقَ المسائل المنصوص عليها أحسن وأجاد في وضع غير المنصوص عليه في أماكنها.

وأما سائر الأصناف من الأنصاف فما دون، فهم يحسبون أنهم يحسنون؛ ولكن (من ثمارهم تعرفهم)، والواقع مشاهدٌ ملموسٌ، والشرّ ظاهرٌ محسوسٌ، ولا قوة إلا بالله.

وأخيراً: يتبين لنا -من خلال ما مض- أن الطعن في العلماء من سِمَات أهل البدع، ولا سيما قولهم المشهور: «العلماء فقهاء حيض ونفاس»!! فهذه عبارة قالها قديماً -على معناها ومبناها وأساسها- بعض الأرجاس.

ولقد نقل الإمام الشاطبي في كتابه الفذّ «الاعتصام» كلامَ عمرو بن عبيد (رأس الاعتزال): ألا تسمعون! ما كلام الحسن وابن سيرين إلا خِرقةُ حيضةٍ ملقاة!! ثم علّق الشاطبيُّ بقوله:

«ورُوي أن زعيماً من زعماء أهل البدع كان يريد تفضيل الكلام على الفقه، فكان يقول: إن علم الشافعي وأبي حنيفة جملته لا يخرج من سراويل امرأة»، وعلق عليه بقوله: «هذا كلامُ هؤلاء الزائغين، قاتلهم الله»[17].

فاللهم إنا نبرأ إليك من المبتدعة، ومسالِكهم، وطعونهم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٤٠).

(١٢) أخرجه ابو خيثمة في «العلم» (ص٦٩).

(١٣) «تلبيس إبليس» (ص١٢٧).

(١٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم٧٨٩)، وابو خيثمة في «العلم» (ص١٠٩)، والطبراني في «الكبير» (١٨٥٦٦)؛ وسنده صحيح.
وانظر «السلسلة الصحيحة» (٢٥١٠) لشيخنا -رحمه الله-.

(١٥) «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٦ - ط: القديمة).

(١٦) «بيان فضل علم السلف على علم الخلف» (ص٥٧-٥٨).

(١٧) «الاعتصام» (٣/ ٢٤٨).